



بلورة وعي الشخصيات من خلال الفضاء الصحراوي

أ. حنان محمد الخوجة⁽¹⁾

ملخص:

تنطلق الباحثة في رؤيتها للمنوط بما من محاور الندوة ، وهو البنى النصية، من خلال أهمية المكان في رسم إدراك الشخصية، ومدى تأثيره على تقييمها للأمور، وما لخصوصية السرد الصحراوي الملمع بالتقلبات والأبعاد والمفاهيم، وانطلاقاً من أهمية ذلك من حيث ارتباطه بمكونات السرد، سعت الورقة لتوضيح مكونات السرد، عموماً وخصوصاً وذلك لأن المكان ركن أساسي من أركان انتاج النص السردى جغرافياً أو قيمياً، إضافة إلى أنّ الشخصيات بمحملها وتفصيلها يحويها الفضاء المكاني ويضيف إليها وتضيف إليه بشكل تبادلي، من خلال بحث الرؤى المطروحة والتبصيرات التي يعرضها العمل السردى ككل، مرتبطاً بقضيته و كفيّة طرحها للقارئ، وقد سعت هذه الدراسة إلى تعزيز الطرح النظريّ سابق الذكر، بتحليل لنصوص جرت أحداثها على رقعة الصحراء خالصة تارة، أو مقترنة بالماء والرّواء تارة أخرى، في خدمة هدف النصّ وما يعبر عنه، لتكون الدراسة متعاضدة الجوانب في بيان ما لأدب الصحراء من أبعاد وقيم كانت خافية في الحديث عن القضايا القومية، بل قضايا الانتماء بعموم القطر الليبي، والأقطار المجاورة، بأشكال متغلغلة ومتحدّرة في أعماق التراث والثقافة المجتمعية الحاضرة الغائبة، والمتغايرة زمنياً، من خلال عقد المقارنات، والخلوص إلى أبعاد التكوينات المتضادة إزاء المكان الواحد، أو إزاء التضاد القيمي للحفاف والماء، الحياة والموت، من خلال تطبيق ذلك على روايتي عبد الله علي الغزال، التابوت والقوقعة .

1 - كلية التربية، الجامعة الأسمرية الإسلامية.

في بداية هذا الجزء من المحور الذي يهتم برؤى الشخصيات داخل النصّ السردّي مرتبطة بالمكان، يجب التعرّيج أولاً على مكونات الحكاية الأربعة من خلال سرديات الحكاية، التي ستشكل وعي الشخصيات إزاء الصحراء، الذي لا يقوم إلا بوجود المكوّن السردّي للحكاية التي تمثّل النصّ، فلا وجود لشخصية خارج إطار المكان، الذي لا يشكّله إلا الحدث عبر تغاير الأزمنة، إذ أنّها هي سلسلة واحدة، أو صورة واحدة لا نستطيع إلغاء جزء منها لصالح الآخر، فلا قيام لجزء دون الآخر، إذ "الحكاية هي مادة الرواية، هي العالم الذي يقدمه النصّ الروائي، أي: الأحداث، والشخصيات، والمكان، والزمن، وهي تتكوّن تدريجياً مع تكوّن الرواية أو مع سير القراءة، فالعالم الذي تقدّمه الرواية عالم لغويّ...، يشابه العالم الواقعيّ أو يختلف عنه، وتكون العلاقات بين شخصياته معقولة أو غير معقولة، وتكون صور الأمكنة مألوفة أو غريبة، وتكون مقاييس الزمن مطابقة لمقاييسنا أو مفارقة"⁽²⁾، وهذه المادة بمجمل علاقاتها تعمل عليها من خلال سرديات الحكاية، التي تختلف أوجه النظر في بحثها من حيث الانتماء إلى تيارات واتجاهات معينة، من خلال طرح المحاور الأربعة بكيفيات محدّدة لا تخرج عن تكوينها الخاص، الذي ستعمل عليه سرديات الخطاب، من خلال التلاعب به وتحميله الدلالة المعنوية، وتعبئته بمنطلقات قيمية مقصودة، وهي مدار عملنا تحديداً، حيث يتحوّل الفعل والفاعل والزمن والمكان إلى مكونات دلالية محمّلة بالقيم؛ فيصبح بذلك الفعل حدثاً، والفاعل شخصية، والزمن حركة تشكيل، والمكان فضاءً يجمع كلّ ذلك، ولعلنا هنا نطرح كلّ مكوّن على حدّئٍ قبل البدء بالتخصيص، بما يهّم الورقة.

- الحدث: من خلال البحث عن بنيته وكيفية تحقيقه.
 - الشخصيات: يكون ذلك يبحث العلاقات بينها، وطبيعة هذه العلاقات من حيث انفصالها واتصالها، وتناقضها وتطافرها.
 - علاقة الفضاء المكاني والزمني بحركة الشخصيات، وبلورة الحدث: من خلال تحديد دورهما في بناء الأطراف الأخرى، أي: بناء الزمن والمكان للحدث والشخصية⁽³⁾.
- وذلك لأن اشتراك الأطراف الأربعة في تكوين الحكاية، لا يكون بانفصالها عن بعض، بل بتربطها، لخدمة بعضها بعضاً فيما يُعرف بالترهين⁽⁴⁾.

وتهمّت هذه الورقة بمكوّنين مهمّين من سرديات الحكاية فيما يخصّ أدب الصحراء، هما "الشخصيات، والمكان"، بشكل دائريّ تقاطعيّ تكامليّ، يعتريه التمازج أحياناً، والتعارض أحياناً أخرى، وذلك من حيث

² - معجم مصطلحات نقد الرواية، لعبد اللطيف زيتوني، ص: 77.

³ - ينظر: السرديات والسرد الليبي، لعبد الحكيم المالكي، ص: 64.

⁴ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 54.

بلورة وعي الشخصيات تجاه المكون الصحراوي، بكل تأثيراته المادية والتجريدية، التي يدخلها عنصر الزمن ضمناً من حيث التحكم في وجهة النظر للمكان الواحد، وقد نلجأ إلى إضافة مكون مكاني آخر يشكل التناقض القيمي لصورة المكان في دخيلة الشخصية، وهذا ما يهمننا وما نعول عليه "تفاعل الشخصية وفقاً للمكان"، فيما نسميه وجهة النظر أو التعبير أو الرؤية، وقبل الدخول في تفاصيل ذلك، علينا ثانياً: أن نوضح مفهوم الرؤية أو وجهة النظر وما يتعلق بها.

أولاً: الشق النظري:

* مفهوم الرؤية أو التعبير، والوسيط في ذلك:

نستطيع أن نفهم من وجود رؤية معينة استلزام وجود راءٍ، إذ إن المنظور المكون للرؤية هو: "أداة لاختيار وتقييم معلومات السارد ولرؤية أحداث وحالات القضايا من وجهة نظر شخص ما"⁽⁵⁾، هذا الشخص على اختلاف انتماءاته إن كان رايواً خارجياً أو شخصية داخلية لا يخرج عن كونه مركز النص ووسيطه، من حيث هو فكره ومعارفه وانعكاساته وتخيالاته الإدراكية والفعليّة، بل وانتماءاته الأيديولوجية، تجاه مكونات النص السردية ككل، ويمكن تسميته بالمؤرّر⁽⁶⁾.

وفي بداية ما يطالعنا عن الرؤية ما قدمه جيرار جينيت مؤسس السرد، عن التفصيل بين من يتكلم ومن يرى، ويقدم الأحداث والوصف الشعوري المرتبط بمكون ما، ومدى كون ذلك ذاتياً أو منطقيّاً، من خلال الجدول الآتي:

ملاحظة خارجية للأحداث	تحليل داخلي للأحداث	
2- شخصية ثانوية تحكي قصة الشخصية الرئيسية.	1- الشخصية الرئيسية تحكي قصتها.	سارد شخصية في القصة
3- المؤلف ملاحظ يحكي القصة.	4- المؤلف المحلل أو العليم يحكي القصة.	

فهنا يكمن البحث عن هوية السارد بغض النظر عما يقدم من وجوه المكون السردية، فالحدث عبارة عن منتج زمني مكاني مؤطر بتقييم الذات تقدمه الشخصية، حيث يتخصّص مدار الاشتغال في توضيح شخصية

⁵ - علم السرد، مدخل إلى نظرية السرد، ليان مانفرد، ترجمة: أماني أبو رحمة، ص: 79.

⁶ - ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الزراوي، بل الزاوي وعلاقته بالعمل السردى ككل⁽⁷⁾، وبذلك يُقسَّم السارد إلى عدّة أقسام حسب تصنيف الأقدمين له:

1- ساردٌ عليمٌ: تكون رؤيته من الخلف، حيث يعلم أكثر ممّا تعلم الشخصية، ويرمز له تودوروف "بالصيغة الرياضيّة".

2- يقتصر وعي السارد وعلمه بما تعلمه الشخصية، أي: أنّ علمهما مساوٍ، ويسمّيها لوبوك بـ "الذات أو الحقل المقيّد"، أو الرؤية مع "الزراوي - الشخصية" ويرى معها.

3- السرد الموضوعي: يكون وعي السارد خلاله أقلّ من وعي الشخصية، أي: يعلم أقلّ ممّا تعلم الشخصية، ويسمّيها بويون "رؤية من الخارج"⁽⁸⁾.

وبذلك تكون أنواع الرؤيات، ثلاث، هي:

أ- الحكاية ذات التّبئير صفر، أو غير المباشرة، وترتبط بالسارد الأوّل.

ب- الحكاية ذات التّبئير الداخلي، وترتبط بالسارد الثاني، الذي يتساوى علمه والشخصيات.

ج- أمّا النوع الثالث، فهي الرؤية الخارجيّة، التي تعتمد على السارد الثالث، الذي تتعمّ علمه الشخصية⁽⁹⁾.

وفي طرح آخر أكثر دقّة يقدم لنا سعيد يقطين تفصيلاً متخصصاً لوظيفة الرؤى، أو التّبئيرات، فهو يتبع في ذلك آراء نقاد بعينهم⁽¹⁰⁾، حيث أضاف للرؤى أبعاداً قيمية عامّة وخاصّة، وبذلك أصبحت تفرعاتها أكثر تخصيصاً وتحديداً، وهذا ما يعيننا في طرحنا:

1- المستوى الأيديولوجي.

2- المستوى التعبيري.

3- المستوى المكاني - الزماني.

4- المستوى السيكولوجي⁽¹¹⁾.

ومن هنا تنقسم وجهة النظر إلى: داخلية، وخارجية، حيث تتداخل من خلال الثبات والتحوّل، ارتباطاً بالداخل والخارج في عدّة صور:

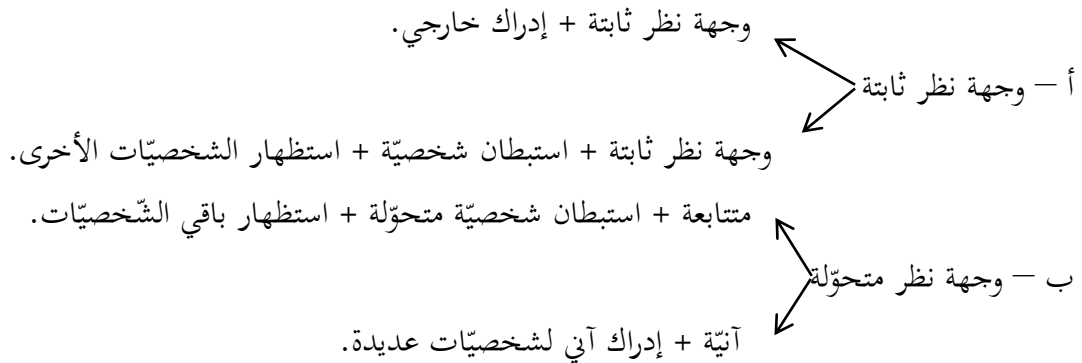
⁷ - ينظر: تحليل الخطاب الزاوي، الزمن، السرد، التّبئير، لسعيد يقطين، ص: 283.

⁸ - ينظر: خطاب الحكاية، لجيرار جينيت، ص: 201.

⁹ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 201-202.

¹⁰ - اعتمد على طروحات بورييس أوسبنسكي، وتشانزل، ولينتفلت.

¹¹ - تحليل الخطاب الزاوي، لسعيد يقطين، مصدر سابق، ص: 294.



ومن خلال ما سبق وعلى اعتبار أننا نقتصر على الفضاء المكاني، فسيكون مدار اشتغالنا على الطرح الثاني للتروى مرتبطاً بالأول؛ وذلك لأنّ المكان يصنع البعد القيمي لكلّ مكّون آخر يتحرّك خلاله بوجوه متعدّدة، إذ تندمج العلاقة بين ما قدّمه جيرار جينيت، وما قدّمه أوسبنسكي المتمثّل في طرح يقطين: "العلاقة النفسية الأيديولوجية للشخصيات" باختلاف مواقعها وعلاقتها بالزاوي داخل النصّ من جهة، والتأثير المكاني القيمي في ذلك، فاللغة حين تنظّم تصويراً وتشكيلاً " وفقاً لعلاقات مكانية معيّنة تربطها بعضها مع بعض من جهة، ووفقاً لمواقع المعاينة الذي يشعر بأنّه يحتلّه من جهة"¹²، وتمثّل ببساطة النظم القيميّة والسلوكيّة، بل والمفهوميّة إزاء المجتمع والعالم¹³، وما اللّغة إلّا تجسيد لذلك عبر ترسيم حدود الشخصيّة مكانيّاً وزمنيّاً، ومن ثمّ تنتج لنا المنظومة المتكاملة، لكنه النصّ عبر أقطابه الأربعة مجتمعة: " زمن - مكان - أحداث - شخصيات"، لكنّ الذي يعيننا سيره الشخصيات في بعدها القيمي من خلال تشكيل المكان لها. وعند هذه النقطة نصل إلى الجانب التطبيقي من الورقة، وذلك بعرض نماذج تحمل أبعاداً متضادّة في تشكيل المكان لوعي الشخصيات، حيث ينشأ الصّراع بين الشّمال والجنوب تارة متمثلاً بالتضاد بين الصحراء والبحر، كما في القوقعة لعبد الله الغزال، وأخرى تختلف المحمولات الدلالية للمكان ذاته، عبر اختلاف انتماءات الشخصيات وتقييمها للصحراء كما في التابوت للغزال أيضاً، وسنتقل الآن لعرض ما سبق .

ثانياً - الشقّ التطبيقي:

* رواية التابوت:

تحكي رواية التابوت حكاية مجموعة من الشبان يؤدون الخدمة العسكريّة الوطنيّة، انتقلوا من مدنهم التي عاشوا، وترّبوا وترعرعوا فيها، كلّ بانتمائه وثقافته وقيمه ومبادئه، إلى مجهول لم يعرفوا تفاصيله، حتّى وصلوا

¹² - النّقد اللّساني، لروجر فاوولر، ترجمة عفاف البطاينة، مراجعة هيثم غالب الناهي، ص: 267.

¹³ - ينظر: المصدر نفسه، ص: 271.

صحراء محفوفة بالترقب والمخاطر، كلّ استقبلها بوعي مختلف، فتكوّنت صوراً مختلفة حسب تغاير الأزمنة بين القديم والحديث، بموازاة المهمة المجهولة، ومن ثمّ تكوّنت لدينا ثلاثة أقطاب معنويّة، تدور حولها مفاهيم الشخصيات ضمن المكوّن الصحراويّ، وهي: فضاء الحرب، فضاء الذات، الفضاء الأيديولوجي، وكانت متباينة بحسب تباين بني كلّ من شخوص العمل السردي، وهو مما أدّى إلى اختلافات وصراعات إدراكيّة تجاه الوطن والانتماء الجديد، والذي أنتج هذا التباين هو البعد الأيديولوجي بخاصة، الذي تحمله كلّ شخصيّة، أو الفكر الذي تعبّر عنه، فهناك من استقبل مجهوله الجديد بإيجابيّة زائفة فرضها الأمر الواقع، وهناك من كانت إيجابيّة صادقة نابعة من ذاته، وهناك من استقبلها بسلبية مغرقة، وآخر لم يستطع تكوين موقف واضح محدّد منها، بل تأرجح بين خوفه وقلقه، وقدّم لنا الرّاي الشخصي "س"، كلّ ذلك من خلال صور مختلفة انتقلت بنا من إدراك شخصيّة إلى أخرى، فتارةً نخبرنا بالحقيقة، وتارةً يعيدنا إلى الماضي، وتارةً يقف معنا مرتبك الفهم. ونحن بهذا الصّدّد نقدّم كل ما اعتمل الأفكار من تباين واختلاف وضبابيّة ووضوح، الحاصل لرؤى كلّ شخصيّة مقارنة بالأخرى في شكل صراع قيميّ مستقلّ إزاء المكوّن الصحراويّ.

وقبل أن نعرض الجدول المخصّص لذلك لا يفوتنا أن نعرض الانتماء الفكري والعقدي لكلّ شخصيّة:

1- شخصيّة "بشير":

مثّلت البعد الدّيني والاعتقاد بالسّحر والجنّ والشياطين، الذي يدخلنا إلى الأسطورة في التّكوين المكاني، استناداً إلى ثقافة مدينته التي انحدر منها، وهي تمثّل البعد الصّوّبيّ المشوّه، والاعتقاد بشخصيّة الشيخ الأسمر وحكايات الجدّات، حيث تبلور وعي شخصيّة بشير تجاه الصّحراء ضمناً لموقفين: أحدهما بالماضي، والآخر بالحاضر، وكان الحاضر مطبوعاً بالماضي، إذ استقبل وعيه فضاء الصّحراء أيديولوجياً من خلال ثقافة الجنّ والشياطين ومعتقداته حول الشيخ وما يحمل من أبعاد، تقترب من الأسطورة، حيث جعل الأسطوريّ معادلاً للمكان، إذ عاش حاضره عبر خلخلة الاستدعاء للماضي⁽¹⁴⁾، بناءً على طرح الوعي المصاحب للمكان ومدى تأثير ذلك على تشكيل فضاء الصّحراء القيمي، الذي لم يتغيّر كثيراً عن القيمة التي جاء بها بشير أصالة، حيث انحصرت حالته الإدراكيّة في الخوف، وترقبّ الجزاء وظهور الملكوت الغيبيّ- الذي استوطن الصّحراء-، وهو ما كان يؤمن بوجوده وظهوره لمرتكي الخطايا، لاغيّاً وعيه تجاه المكان من حيث هو وطن وقضيّة وجود، ولا نستطيع القول إنّ الصّحراء لم تقدّم جديداً للشخصيّة، ربّما كانت العلاقة هنا علاقة احتواء وتضمين وتشكيل، بين ما جاءت به الشخصيّة وما قدّمه عالم الصّحراء في ذهن الوافد، من خلال مساعدته على تثبيت رؤيته الفكرية المرتبطة بالموروث الدّيني القريب من الأسطوري في ذلك.

14- ينظر: استنطاق النّص الرّوائي من السرديات إلى السيميائيات السردية إلى علم الأجناس الأدبيّة، ... لعبد الحكيم المالكي، ص: 333.

2- شخصية "جمعة":

قد مثلت شخصية جمعة الرجل البدوي المثلّم، الذي يعشق الصّحراء متمثلاً لها بقوّته وصلابته وجلده وثبات رأيه، هي موطنه الذي أرغم على الهجاء إليه، فكان لزاماً عليه أن يكون صحراويّاً حقيقياً يفخر بصحرائه، بل يتعدّى ذلك إلى التّعالي على الحاضرة وخوفها وقيمها، جمعة مثل سياسة الأمر الواقع بلباسه وشجاعته وقسوته، حملت شخصيته رؤيا واحدة ثابتة اتخذت مساراً إيجابياً، حيث كوّنت نموذج أهل الصّحراء وطبيعيّة البيئة وصلاحتها للحياة، بعكس ما جاءت به شخصية بشير، ومع كونهما صديقين انحدرتا من المدينة ذاتها، مرتبطتين ارتباط الوجهين للعملة الواحدة، تبلور وعي جمعة متنامياً نحو الصّحراء بشكل إيجابي مفترض، لا ينبع من أصالة، فقد كانت حياته بجوف الصّحراء حياة صحراويّ، كان يسير في رحلات لاكتشاف خباياها، ويتجوّل طالباً للهدوء التّفسيّ في الخلاء، كان يجمع الحطب، يقتل الأفاعي، بل تعدّى ذلك إلى الصيد، صيد الطيور، وصيد النّاقة للحصول على اللحم، عاش حياة طبيعيّة، فرض عليه واقعها أن يعيشها، والمفارقة أنّ من آمن بالحياة في موطن الجفاف والقحط والخوف والمجهول، جوف الصّحراء، مات بلدغة أفعى مباغتة، صنعت لنا الصّحراء شخصية المحارب المجازف الذي يتحدّى مخاوفه وواقعه، ينتصر على كلّ ما تحمله من سلبيّات، على أنّه وعي مختلق لا تؤمن به، وأما هو وسيلة تعايش في واقع يقابله بتعالٍ وحقديّ وتلذّد.

3- شخصية "زيدان":

حملت شخصية زيدان الانتماء للوطن، أي: أمّا كانت الإيجابية الصادقة الوحيدة، وأضافت إلى الصّحراء معنىً آخر، بعيداً عن الموت والدّم والسفك والهلاك، حملها بطاقة الوجود، حيث انحدر إليها من بيئة وارفة الظلال خضراء يانعة مترققة بخير الماء، أينما يحلّ تحلّ معه الحياة، في مقارنة بين ترهونة بالشمال، والصّحراء بالجنوب، نستطيع أن نقول: إن زيدان شكّل لنا صورة جديدة للصّحراء، ولم تؤثر على وعييه، بل على العكس من ذلك، هو من أثر فيها، حيث تبلور وعيه من خلال قيم الانتماء والوطنية والفداء، لم ينظر إلى الصّحراء بمكوّناتها الأسطوريّ كما عند بشير. أو مكوّناتها الجغرافي المادي كما عند جمعة، أو حتّى مهمة الحرب كما عند الجنديّ "س" الآتي الذّكر، بل رآها من جانب وطنيّ خالص تربيّ عليه، وغرسه به جهاد أجداده، مثل: صورة المحارب غير المكره الإرادة، بل كان يراه واقعاً يدعو للفخر، مصدراً للحياة على ناصية أخرى من الحاضر - التاريخ -، لذلك كانت شخصيته رمزاً للحياة بكلّ أفعالها وأحداثها، بأبعادها المختلفة دينياً وجغرافياً وأيديولوجياً.

4- شخصية الجنديّ "س":

هي الشّخصية الأكثر وجوداً، التي قدّمت لنا وعي رفقاءها في رحلة الحرب، حملت على كاهلها تشكيل العمل السّرديّ كاملاً، الجنديّ "س" غير المحدّد باسم، حمل على كاهله تفكير المواطن البسيط العاديّ تجاه ما

يسمعه عن الصّحراء، وتجاه عوالم الحروب والقلاقل والصّراعات والسّلاح والدم، والانسلاخ إجبارياً من عالم جميل نابض بالهدوء والسّعادة والاعتيادية، إلى عالم مناقض دونما أسباب مقنعة تبرّر له قدومه إلى فضاء صحراوي لا يحمل إلا الخوف والموت، حملت هذه الشّخصيّة كلّ المفاهيم المتضاربة، وخلخلت الوعي الجمعي، بكلّ أطيافه، دونما انتماء أيديولوجي سابق لفضاء الصّحراء، عبر التّفكير الواقعي والتّقييم البسيط لعالم لم تعرف عنه شيئاً سوى خيالاته الطّفوليّة، من الممكن أن يكون إدراكها تجاه الصّحراء إدراك أيّ فردٍ منّا دون تخصيص، وقد تكون عبر متضادّين؛ قيمة الصّحراء أثناء الطّفولة، حيث كانت تراها موطن الفرح والمرح واللّعب والحلوى، والصّحراء عبر حدث الحرب والخوف والتّوجّس والخلخلة الشّعوريّة، التي لم تستطع بفعل تأثرها بكلّ ذلك أن تتخذ موقفاً بعينه يخصّ بقعة الصّحراء، لم تستطع تحديد ردّة فعل واضحة، كانت مشتتة مأخوذة بالخوف من القادم، خوف من الموت تارة، من الحرب تارة أخرى، بموازاة الصّورة الجميلة التي كانت إلى زمن قدومها إلى المهمة مرتسمة بخيالها، هي الوعي الوحيد الذي لم يصنع لنفسه تخوماً تبين كنهه، لم تستطع إثبات ردّة فعل واضحة، ومن هنا نستطيع القول: إنّه الوعي العام، مزيجٌ من رؤى رفقاءها وصورها المتناقضة، اتّحدت بخلصة الإتيان إلى عالمٍ لم يتمّ اختيار الجيء إليه تحفّه المخاطر.

ننتقل الآن إلى الجدول الذي يبيّن الصّراع القيمي، لكنه الشّخصيات إزاء الصّحراء .

الفضاء الصحراوي	بشير	جمعة	زيدان	الجندي " س "
فضاء الحرب	البارحة لم أستطع التّوم كان الجوّ خانقاً جدّاً، والحقيقة أنّني خفت كثيراً بعد أن رحل الجنود القدامى ونام الرّفقاء، أنت محظوظ، لأنك غبت عن الوعي. ص: 113.	أنا لا أظاهر بالشّجاعة، أنا إنسان أومن بالواقع الذي أعيشه، وواقعي الآن هو أنّي أجوب صحراء قاحلة معبأة بالألغام، جنتها مكرهاً أحمل بنديّة ... وهذا الواقع يحتم عليّ أن أكون جندياً حقيقياً .	كان زيدان مستعدّاً استعداداً كاملاً حراً بأن يواجه الموت في سبيل الدّفاع عن الأرض . عندما زحف عبد العاطي الجرم بجسده المقطّع المغمور بالدم ويجرّ نصفه فقط ليسدّ الثّغرة في الجدار أمام الطّليان، وهو يقول " احتموا بي .. مالكم حاجة بي .. " لم يكن	لم أكن أعني شيئاً ممّا يقول، أيّ: حرب؟ وأيّ: هدف نبيل؟ وأيّ: نصر؟ لماذا ولد هذا المسخ الذي اسمه الحرب أصلاً؟ ولماذا يغير الرّزّوج على أطراف الصّحراء؟ دعهم يغيرون ستأكلهم الصّحراء وشمسها الصّاحية، ولماذا يشنون حرباً طاحنة على بعضهم البعض... سرى سمّ الفناء والموت السّارج في رمال

<p>الصّحراء في أوصالهم الهزيلة وأصابهم بعدوى القتل. ص: 66 .</p>	<p>أبدأ يتكلّم من داخل جدران سجنه الجسديّ، لقد كان إنساناً حقيقياً. ص: 139-156 .</p>	<p>ص : 192 .</p>		
<p>لا أدري إلى أيّ مصير مشؤوم ستأخذني هذه الطّائرة ... إنّها لعبة الحياة، لعبة الحياة القذرة، حين تشبك يدها في مخالب الموت وتشرع في رقصها المجنون، الموت المخيف أشعر به يصاحبني في هذه الطّائرة . لا أدري أين يحتبئ ذلك الشيء. ص: 52 .</p>	<p>رائحة الخبز في الصّحراء شيء رائع مقدّس، لا شيء يجرس ناي الموت النّائح بالفجيعة في هذه الفلوات مثل انفلات عبق الخبز المكويّ بالنّار. ص: 225 .</p>	<p>هكذا هي الصّحراء، شرعة الصّحراء هي القتال وشنّ الحروب وسفك الدّماء. ص: 247 .</p>	<p>ظلّ بشير يحدّق إلى الصّحراء التي لا تنتهي .. ! الصّحراء موطن الشّياطين والجحّن، هكذا يرّدّد الأسلاف ! الأسلاف يقولون: إنّ الجحّن هجر الشّمال والمدن الممتدّة على ساحل البحر منذ قرون ركن إلى اليد الموحشة، واستوطن الوديان البعيدة وشعاب الجبال النّائية المرشوقة في بطن الصّحراء . أقاموا حلفاً مع الصّحراء بأجنادها، الثّلاثة: العطش، والشمس، والأوبئة</p>	<p>الفضاء الأيديولوجي</p>

			المجهولة، وأخذوا المواثيق على أنفسهم بأن ينتقموا من بني البشر. ص: 84-89.	
فضاء الذات	لحت طيف بشير يرتقي الجبل عبر المسرب، كانت خطواته مترحة لا شك أنه سكران كان يمشي متمايلاً، قطع بشير لحنه السابح في رائحة الكحول وتحركت شفثاه : - لقد رأيت الشيخ البارحة في الحلم . - الشيخ ؟ - نعم الشيخ الأسمر جاءني في الحلم كانت حالة بشير تخيفني ...ص: 280-281 - 284.	عندما يلحظ جمعة بداية اختفاء جزء من قرص الشمس وراء القمم البعيدة يأخذ لفة الحبل ويمتشق بندقيته ويحكّم لثامه ثم يقترح الذهاب في جولة لجلب الحطب ... قال لي: إنَّ الخروج إلى الصحراء ساعة الأصيل يطلق النفس من قيود كثيرة . كان جمعة جندياً مثالياً كان نوعاً آخر من البشر متمرداً منفلاً لا تفارقه بندقيته يتكلم دائماً عن القتل والحرب ترك في نفسي	زيدان كان إنساناً متزناً جاذباً كراهبٍ حقيقي، كان يصلّي دائماً ...، كان مثالا للإنسان المنظم النشيط، حفر حفرة عميقة في الرمل ودفن فيها برميلاً معدنياً مفتوح الفوهة وصنع منه تنوراً . منذ أيام ملاً زيدان أحد صناديق الفاكهة الفارغة بالرمل، ودفن فيه ثمرة بطاطا مقطّعة ... ثمّ سقاها بالماء ظلّ أياماً مواظباً على ريّها بالماء ... ثمّ تفتّقت البروزات الصغيرة ... شيء جميل خارق جليل تلمل في جوف هذه الكائنات، خرج من ظلمة العدم وتطاول إلى النور.	كان أبي يعود من رحلاته محملاً بأشياء كثيرة، هدايا، ولعب، وحلوى، وملابس وأحذية كان الأمر المؤكّد في عقلي الصغير أنّ الصحراء التي يذهب إليها أبي هي مدينة كبيرة بها شوارع ضيقة طويلة مرصوفة بالبلاط ملبئة بالدكاكين والحيوانات التي تتحرك بالزنبك ومعبأة بالبسكويت المصنوع من عصير الخوخ والمشمش والبرتقال والعنب وشرائح الحلوى المصقولة بالكاكاو والمعلّفة بالورق الرقيق الناعم. وأظنّ أرقب بخوفٍ الباب الهائل وهو يفتح أمامي، وهو يفتح في ذاكرتي هل هو الموت ؟ أم هل هو

<p>الفرصة والتجربة ؟ أم هل هو شيء آخر ؟ أو ربما هو أحد أبواب الواقع التي ما تفتأ تنفتح وتغلق في وجوهنا كل يوم.</p> <p>توارد على خاطري هنا موتي وميلادي وتيارات حياتي.</p> <p>ص: 37-38-74.</p>	<p>ص: 138-259.</p>	<p>انطباعاً خاصاً خطيراً منذ ذلك الصباح الأول الذي التقيته قرب موقد النار الذي يعدّ عليه بشير شاي الصباح.</p> <p>ص: 185 - 256.</p>		
---	--------------------	--	--	--

● تلخيص فضاء الصحراء، ومواقف الشخصيات منه في رواية التابوت:

تباينت وجهات النظر بين الشخصيات إزاء ما تحمله كل شخصية؛ تباعاً لأحد القضايا والانتماءات التي عرضناها بالجدول، وكوّنت التشكيل الصحراوي لفضاءات حركة الشخصيات ووجودها، ضمن البقعة المكانية ذاتها، ومن خلال ما سبق يتكوّن لدينا الآتي :

أولاً: الصحراء فضاءً للحرب (الموقف من الحرب ذاتها):

من خلال عرض رؤية كل شخصية لمفهوم الحرب، والمهمة التي سيروا خدمة لها، تبين لنا أن الموقف المتكوّن تجاه الحرب، كان تباعاً لموقف كل شخصية تجاهها بالصّحراء، تبايناً بين الخوف مجرداً عن موقف كما عند بشير، أو الخوف مرتبطاً بموقف الرّفص كما عند الجندي "س"، انتقالاً إلى التكيف مع الحرب وتمثّل العالم المحيط من خلال التّعالي وكسر حاجز الضّعف والخوف كما عند جمعة، وصولاً إلى القناعة التامة بمهمة الحرب وبعدها الوطني، واستقبالها بإدراك إيجابي كما عند زيدان.

ثانياً: الصحراء مادة لمواقف الشخصيات الأيديولوجية:

كان للصحراء هنا دور واضح وجلي، حيث حملت لكل شخصية أيديولوجيا معيّنة، من خلالها تمّ التعايش مع الوضع وخلق أحداثه المختلفة، إذ إن لكل شخصية فكراً موروثاً سابقاً عن رقعة الصحراء، ابتداءً من كونها أرضاً للجن والشياطين والجزء كما رآها بشير، مروراً بتمثلها القتل والسّفك، والانسلاخ من أبعاد قيمية ليّنة معاكسة، تتمشى مع بقاع أخرى غير الصحراء، كما عاشها جمعة، وصولاً إلى كونها فضاء للتّربّح والتّجربة والمجازفة، ممثلة صور القدر التي لا تملك النفس البشرية بموازاته القدرة على الاختيار من خلال تخلخل وعي الجندي، اختتاماً بكونها ناصية أخرى من الحياة و العطاء والخلود وفقاً لمنظور زيدان.

ثالثاً: الصحراء فضاءً لتباين الذوات بين الشخصيات:

أما عن الذات فقد عكست الصحراء دخيلة كلّ فرد عاش تفاصيلها، مرغماً كان أو عن قناعة، حيث خلقت تبايناً شديداً للاختلاف بين عوالم الدواخل المنتجة للفكر الجمعيّ، رآها بشير جزاءه الواقع لا محالة، لارتكابه السبب، ورسّخت انتماءه العقدي، وقدمت لجمعة فضاءً لسبح ذاته القويّة الصلبة، فاتحة له رقعة تأمل وإصرار لخلق الوجود الشامخ. أما زيدان فقد كانت انعكاساً للخلود الذي يحمله بذاته، وعنقوان الحياة الذي لا يمنعه شيء عن الميلاد، لا قحط ولا جفاف ولا خوف، وعند الجنديّ نراه مأخوذاً بأحلامه الصغيرة البريئة البعيدة عن القتل والسفك والترقب، من خلال عيشه لمفاهيم الماضي، وتحوّله إلى حالة الترقب، وتقبّل المتضادات عند حاضره، الذي خلق ذاتاً تحمل وجودها الجميل مرتبطاً بانعدامها المخيف.

● رواية القوقعة:

تحدثت الرواية عن شابّ إفريقيّ من النيجر، قدم من جنوبه موطن الجوع والموت والفاقة، بكلّ ما يحمل له في قلبه من إجلال وتقديس بل وانتماء، اضطرتّه الظروف الحياتيّة إلى أن يرحل إلى الشمال تبعاً لنصيحة شيخ القبيلة الذي زرع بدخيلته الهجرة إلى أرض البحر العظيم "الشمال"، كما يراه ويُجلّه، إذ يمثّل له الحياة والرّواء، أمره بالبحث عن وجوده وذاته هناك عند البحر، عند الحياة عند النّماء عند الرّواء عند الشّيع، فرحل طالباً حياة وخلاصاً ممّا كان يعانيه، ظنّاً منه أنّ انتماء الفرد لموطن شبعه وأمنه، وليس لوطنه الذي يحمله بقلبه، إلى انتمائه الأزيّ الذي لا تقطعه ظروف ولا ملابسات محيطة، رحل وقصد التراب اللّيبّي، وعند موطن البحر والخير والخبز تعرّض لخلخلة قيمية، عالم مختلف مليء بالتّجاذبات والصّراعات بين المنطق واللا منطق، المعقول واللا معقول، الخير والشر، احترام الإنسانيّة وسحقها، صراعات بين الذات وما يحيط بها من مختلفات حياتيّة، تعرّض إلى الضّرب والإهانة والإذلال، وتحمل صوراً لمبادئ لم يكن ليؤمن بها أو يعرفها قبلاً، لا تمتّ إلى تكوينه بصلة، ميكال ذلك الشّاب الهادئ الرّصين الصّامت، اقترن بفتاة ليل أجبرتها وحشيّة البشر على البغاء، مثل لها طوق نجاة من حالٍ مزرية لم تكن تملك منها فكاً إلاّ باقتراها بزنجيّ مستأجر يعمل بإحدى المزارع خادماً، يرى ويسمع ما تندى له الجبين بحال من اللا فهم اللا تقييم اللا إدراك، عاد ميكال إلى ماله الذي انحدر منه تاركاً حياته الجديدة، متخليّاً عن طعامه ومسكنه، عائداً إلى ذاته وروحه في موطنه النّاضح جوعاً وخوفاً وقحطاً وأوبئة.

هو تقابلٌ بين الشّمال والجنوب بكل ما يحمله من تناقضات، تقابلٌ بين الصحراء والبحر، متمثلاً بميكال وناسكة، وما يهمننا هنا القيم التي مثلتها الصحراء وما يناقضها بحراً، في تشكيل كنه الذات الباحثة عن انتماء ووجود وخلاص، إزاء ما يعانيه من أزمات حياتيّة قيمية.

ويمكن القول هنا إنَّ ميكال جاء إلى الشمال المتمثل بالبحر بأيدولوجيا معيّنة، زرعهها به شيخ القبيلة، فلم تكن أصيلة لديه، إنّما تجربة خاضها باحثًا عن خلاصه من خلالها، في محاولة لإيجاد ذاته، بل حياته الضائعة بخوف الصحراء، كأبي إنسان متعب مجهد معني بما يقاسيه من أزمت وتخطيم للذات بأي سبب مما يعتمل به واقعه، مثلت شخصية ميكال رؤيةً غائمةً وفهمًا مُعتقَدًا، يتخبّطه الإقدام والإحجام التمثّل والتّصنّع، قبالة رؤية أصيلة ثابتة، كانت عصية الثّبات؛ لما تحمله من معاناة ومشقّات، حيث شكّل لنا هذا التّقابل أبعاد الشخصية، من خلال تطارحات الأمكنة المتناقضة، شكّلت وعيًا متأرجحًا مزعزعًا لا قاعدة له، التّقابل بين الصحراء والبحر من جهة، والرّمال الممتلئة للجفاف والموت والمزرعة الممتلئة للزّواء والحياة من جهة أخرى، والتّقابل بين البيت بجدرانها وأمانه واستقراره، والخيمة المحاطة بالخوف والتّلاشي من جهة أخرى، كلّها صراعات أدّت إلى تشكيل حالة من الجدالات الدّاتيّة القيميّة مشخّصة بميكال، وما ناسكة إلا جدال تابع له، ساعد كلّ منهما الآخر في الوصول إلى قرار خلاصه، فكلاهما كان يعاني، بغضّ النّظر عن الأسباب والدوافع لرحلة تشبّت كلّ منهما، وبغضّ النّظر عن مدى صحّة ما اختاراه من عدمه، ولكنّ ميكال مثل لبّ العمل بأسره، ويجدر الدّكر هنا أنّ الرّاي الخارجي الذي يعلم أكثر ممّا تعلم شخوص النّص، هو من قدّم لنا كون ميكال وعالمه، وصنع لنا التّقابل والتّضاد بقيمه شمالاً وجنوباً، وسيقتصر العمل على النّص السّرديّ من خلال قطبيّ الشمال والجنوب وتشكيله لشخصيّة ميكال، من خلال محمولات ذاته القيميّة، وبجته عن وجود وخلاص في آن، وسيبيّن الجدول الآتي التباين والتضاد في الرّوي تبعاً لمفهوم المكان المتحوّل بحسب حركة السّرد وأحداثه:

الفضاءات القيميّة	الجنوب " الصحراء "	الشّمال " البحر "
توجيه أول من الشيخ لرؤية الشخصية	الشيخ الطّرابلسي يقول: إنّ الأشياء تعود إلى أصلها، كلّ شيء يعود إلى أصله القديم، كلّ شيء يعود لمستقرّه الأوّل، مهما اشتدّت دروب المتاهة تعقيداً وقسوة، مهما تعدّدت صنوف الوجدع ومهما استطالت دقات الوقت، ص: 138.	شقيّ من لم يذق حلاوة البحر .. ! وشقيّ من لم يتلذذ يوماً بحلاوة الملح الأجاج. هكذا علّمه كبير القرية في حومة الضّريح، منذ أن كان طفلاً يركض بساقين عاريتين سوداوين نحيلين على الضفاف الرّطبة المعشبة ويجمع أصداف النّهر، ص: 15.
توجيه إضافي من الشيخ لرؤية الشخصية	- الأنبياء؟ كنت أظنّ أنّ الأنبياء لم يسيروا يوماً بأقدامهم الحافية إلاّ فوق الصحراء. - هل تظنّ أنّ صحراء الأنبياء كهذه الصحراء؟	علّمه كبير القرية أيضاً أنّ الغفلة هي أن يسلم كائن البشر نفسه طوعاً لبهتان المكان، ويتوارى داخل صدفة العظم في غفلة عن زمن الرّحلة، ص: 16.

<p>- صحراء الأنبياء يتدفق عليها البحر من أجنابها الأربع ويغسلها بالزبد من كل مكان ... - هل سأقرب بالرحلة ؟ - ستقرب إذا كان لك في الابتعاد نصيب، إذا رأيت ناراً ابتعد، وإذا رأيت جليداً ابتعد، ص: 43.</p>		
<p>لماذا لا ترحلون ؟ الخبز رخيص في ليبيا، الزيت رخيص، هناك في الأرض التي تلحقها المياه المالحة، لا ترى شيئاً اسمه الجوع، هناك يأكلون لحوم الإبل، يقولون: إنهم ينحرون مئات الإبل في اليوم الواحد، ويطعمون الدقيق لخيول المزارع، ص: 39.</p>	<p>اللعنات دائماً لا تحل إلا في الصحراء، في الأيام التالية أكلوا جثث الجراد التي قتلوها بالعصي والجثث التي لم تستطع مواصلة الرحلة ... ثم بدأ الخلق في الموت، طارت أخبار اللعنة في "نيامي". ص: 38.</p>	<p>رؤية ناتجة عن تجربة شخصية</p>
<p>حتى هو نفسه لا يملك الآن إلا أن يستمر في تأجيج يقينه بأنه صار كائناً آخر، إنساناً آخر لا يمكنه بأي حال أن يعيد العلاقة مع أشواقه القديمة وأحزانه القديمة أيضاً، ما الذي تغير؟ ولكن ألا يغير الدهر كل شيء؟ ألم يشاهد بعين القرب كيف تغيرت الأمكنة، كل شيء تغير وتبدل، المزرعة والمدينة، ألم يختف مالك المزرعة؟ ألم ير كيف يدبر له القدر في كل يوم جديد للأشياء طريقة مكوّنها وخروجها؟ ألم يكن هذا القدر نفسه هو من خطّ ورسم السبيل أمامه ليلتقي بناسكة. ص: 236. - أتزوجين عبداً؟ - أحتاج إلى عبدٍ حقيقي ليملكني. أنا لا أستطيع امتلاك نفسي. ص: 234.</p>	<p>لم يع بعدها شيئاً ساقته قدماه ناحية صفوف المزارع، عاد إلى بيته القاحل، قبل حلول العتمة، ظهر شبحه يتهدى بين المرتفعات وهو يحكم دثار الصوف حول جسده التحيل هابطاً الأودية متخذاً سبيله نحو الصحراء. ص: 277 .</p>	<p>رؤية الشخصية النهائية بعد التجارب والمحن التي عاشتها .</p>

● تلخيص فضاء الصحراء وتحولات موقف الشخصية الرئيسية منه في رواية القوقعة:

بعكس رواية التابوت التي كانت مواقف شخصياتها من البعد الصحراوي محددة وثابتة لا تتغير، كانت هنا متباينة ومتضادة أحياناً، ففي القوقعة نجد الرؤية تتحول عبر الزمن وتتبدل، حيث بدأ تشكيل الوعي لدى الشخصية بتباين العاملين (شمال/ جنوب) أو (فضاء الصحراء / فضاء البحر)، حيث يكشف (ميكال - الشخصية المركزية) - كما رأينا في البداية - كيف كان مسار الرؤية مدفوعاً من الشيخ المريني (شيخ الضريح)، ثم صار يعزز ذلك في عدة مواقف من قضية (شمال / جنوب)، وبخاصة مع استحضار شيخ الضريح لرؤية شيخه الطرابلسي القديم، ثم نجد كيف كانت تجارب الشخصية وما تسمعه من الناس تدفعها في هذا الاتجاه، لكن بعد التجربة نلاحظ كيف حسم أمره وعاد لجنوبه، بعد أن اكتشف الحقيقة، التي يمكن تلخيصها في كون القضية داخلية، ولا تتعلق بالفضاءات المكانية، فالموت والحياة والخن موجودة مطلقاً، كما أن الجوهر الحقيقية ليست في قوقعة نحملها ولكن فيما نملكه في أعماقنا.

وبذلك ينتهي البحث إلى أنّ للبقعة الجغرافية تأثيراً على وجود الشخصية، من حيث بناء فهمها وتقييمها للأمر، فتتكلم بفكرها أحياناً، وتفتح وترتقي أحياناً أخرى، متفاعلة مع القضية التي يعرضها العمل السردي، فأحياناً تبلور أوجه النظر للقضية الواحدة في شكل صراع، كما مرّ بقضية التواجد بالفضاء الصحراوي برواية التابوت، الذي يحمل معه الحرب، فقد تشكلت صراعات كوّنتها شخوص العمل التي قدّمها لنا الراوي الشخصية في شكل حكايات مستقلة، رسمت المكوّن الصحراوي بأكثر من وعي لأكثر من زاوية، أعطت نتائج مختلفة بل رسّخت في ذهن القارئ أبعاداً متضاربة مختلفة، فتحت قراءته على اللا محدود. أمّا عن القوقعة فقد قدّمت لنا معنى تجرّدياً، مفاده أنّ الانتماء للذات لا للمحيط، للجدر لا للمنفعة، قدّمت لنا بناء لشخصية المهاجر الذي يبحث عن ذاته مهاجراً عنها، يجب أن يجد الإنسان ذاته بداخله، قدّمت لنا الوجه الصحراوي بتجرّد صادم، يخلو من المحمّلات، هو الوجه الحقيقي للحياة إزاء الواقع المرير الذي ترزح تحت وطأته الذات الإنسانية جمعاء، في صراعها مع التحول القيمي الأيل للهاوية، قدّمت لنا الصحراء معادلاً لتحمل الصعاب مقابل البقاء على القيم، في مواجهة النعيم المنسلخ من الرذيلة، وعي مناوئ للبحث عن الوجود خارج الانتماء، كان الفضاء الصحراوي بكل تأثيراته وقيمه أرضاً لصراع الذات مع واقعها من جهة، وصراعها مع نفسها من جهة أخرى.

*** مصادر البحث**

- 1- استنطاق النصّ الروائي من السرديات إلى السيميائيات السردية إلى علم الأجناس الأدبية، اشتغال على مجموعة من النصوص الفائزة بجائزة الشارقة للإبداع العربي، لعبدالحكيم سليمان المالكي، إصدارات دائرة الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، 2008.
- 2- التابوت، رواية، لعبد الله علي الغزال، دار الفرجاني، طرابلس، ليبيا، الطبعة الثالثة: 2009.
- 3- تحليل الخطاب الروائي، الزمن، السرد، التبعية، لسعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الرابعة: 2005.
- 4- خطاب الحكاية، بحث في المنهج، لخير جينيت، ترجمة محمّد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلّي، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الثانية: 1997.
- 5- السرديات والسرد الليبي، سلسلة الدراسات السردية، لعبد الحكيم سليمان المالكي، منشورات جامعة مصراته، الطبعة الأولى: 2013.
- 6- القوقعة، رواية، لعبد الله علي الغزال، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 2006.
- 7- النقد اللساني، لروجر فاوهر، ترجمة عفاف البطانية، مراجعة هشام غالب الناهي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 2012.
- 8- علم السرد، مدخل إلى نظرية السرد، يان مانفرد، ترجمة أماني أبو رحمة، مكتبة بغداد، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.
- 9- معجم مصطلحات نقد الرواية، للطيف زيتوني، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، الطبعة الأولى: 2002.